

النواعير في كتب التراث العربي

محمد عدنان قيطاز

يرتبط اسم حماة بالنواعير منذ أقدم العصور، وتنفرد بها عن سائر مدن العالم، والنواعير كما هو معروف دواليب خشبية مائية ذات حركة دائمة تعمل بقوة دفع الماء الهادر عبر فتحة في سد صغير فترفع الماء من المنخفضات إلى المرتفعات بواسطة صناديق معدة على محيطها، فتسقي البساتين والحمامات والدور والمساجد والخانات، واسم الناعورة مشتق من نعيها وهو صوتها، ويطلق عليها أيضاً اسم الدولاب والساقية والشادية. وهي ذات أجسام مختلفة، ولكنها متشابهة في الصنع. فهناك نواعير صغيرة تقوم على أفواه الآبار، ونواعير كبيرة تستند على حجريات فوق مجاري الأنهار. وتعد حماة أقدم موطن للنواعير، وأكبر ناعورة ما تزال قائمة حتى اليوم في حماة هي "ناعورة المحمدية" إذ يبلغ قطرها واحداً وعشرين متراً، وعدد صناديقها مائة وعشرون صندوقاً.

ونحن لا نستطيع أن نحدد تاريخ ظهورها بدقة، لأن أهل العلم اختلفوا في ذلك، فمنهم من يرى أنها تعود إلى العهد الآرامي، ومنهم من يرى أنها ظهرت في العصر الهلنستي، وآخرون يرون أنها رومانية، وقد ذهبت المستشرقة الإنكليزية مسز بل بعيداً عندما أصدرت كتابها "الصحراء والمعمورة" عام 1907 في أعقاب زيارتها لمدينة حماة.. فذكرت أنها فارسية، وهذا القول لا سند له، ولعل أقدم مصدر لتاريخ النواعير هو صورة من الفسيفساء عثر عليها المنقبون بين أطلال أقاميا تمثل ناعورة ترقى إلى العصر الروماني، ويرى بعضهم أنها تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد. وقد ذكر الرحالة والجغرافيون العرب نواعير حماة في مؤلفاتهم أمثال ابن جبير وابن بطوطة وياقوت

الحموي وأبي الفداء، كما ذكرها الشعراء في قصائدهم عند نزولهم في حماة أو مرورهم بها باستثناء امرئ القيس.

ويشير سوبرنهام صاحب المعلمة الإسلامية أن فيما اقتبسه الصليبيون من بلاد الشام صناعة النواعير، ويدل على ذلك بوجود نواعير في فرانكفورت بألمانية على مقربة من بايروت كالتي في حماة لا تزال دائرة. كما تشير بعض المصادر الأندلسية إلى وجود نواعير في مدينة مالقة، وتبدو صورة طبق الأصل عن نواعير حماة. وفي كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب بعض المقطعات لنفر من شعراء قرطبة والزاهرة أمثال: عبد الملك بن سعيد المرادي 366هـ وأبي بكر بن هذيل 389هـ ومحمد بن الحسين الطاري 394هـ ويوسف بن هارون الرمادي 403هـ وآخرين غيرهم ذكرهم صاحب نفح الطيب، وفي كتابه زيادة لمستزيد.

أما كتب أهل المشرق فقد أوردت طائفة من الأشعار، ومعظمها قيل في نواعير الفرات، وما أكثر النواعير على شط الفرات كما يقول الزمخشري في أساس البلاغة. غير أن الأشعار التي قيلت في نواعير حماة هي التي حفظتها الرواة ودوَّنها المدونون. وسوف نتحدث هنا عن كتاب الأنوار في محاسن الأشعار لأبي الحسن الشمشاطي وكتاب بدائع البدائة لابن ظافر الأزدي، وهما غريبان في بابهما لاشتمالهما على مجموعة من شعر القدماء في نواعير الفرات ومصر، كما نتحدث عن نواعير حماة في شعر ابن نباتة المصري.

١. النواعير في كتاب الأنوار في محاسن الأشعار:

أبو الحسن علي بن محمد العدوي المعروف بالشمشاطي من أعلام القرن الرابع الهجري، مالك لأعنة البيان شعراً ونثراً، غير أن أخباره وآثاره نادرة في كتب الأدب والتراجم.. لذا لا نعرف منها إلا القليل [انظر على سبيل المثال معجم الأدباء 13: 240]. وربما كان كتاب الأنوار في محاسن الأشعار هو الكتاب الوحيد الذي وصلنا من تصانيفه الكثيرة التي قاربت الأربعين كتاباً، معظمها يتعلق بالأدب وأخبار أهله، ومنها ما يتعلق باللغة والنحو والتاريخ والأنساب، ومنها ما ذهب في بيان فضيلة التشيع والانتماء له، وهناك رسائل في موضوعات متفرقة. ويدل كتاب الأنوار على دراية تامة بأيام العرب، ورواية ضافية وافية لطائفة من شعرائهم. وقد تفرد برواية أخبار وأشعار لم ترد في أي كتاب سواه، وبخاصة مقطعات من شعر أبي العباس النامي والحسين بن الضحاك وديك الجن وأبي نواس. ومن المعروف أنه جمع ديوان ديك الجن، ولكن هذا الديوان لم يصل إلينا. ويذكر محقق الكتاب الدكتور السيد محمد يوسف أن هذا الكتاب لم يخل من أبيات نادرة للقدماء أمثال النابغة الذبياني وعمرو بن كلثوم والأخنس بن شهاب.

ولعل أجمل ما أطرنا به الشمشاطي نخبة مجموعة من أشعار العرب في النواعير وحنينها، فقدّم لنا اثني عشر نصاً فريداً في هذا الموضوع الذي لم يعرض له كاتب سواه قبله. وهذه النصوص هي أقدم ما وصل إلينا في النواعير، ثم أضاف إليها نصاً من شعره. وهي: نص لأعرابي مجهول،

وللمجنون نص، ولعبيد الله بن مسعود ثلاثة نصوص، ولأبي العباس النامي نص، ولصالح الديلمي نص، وللخزاز البلدي نص، ولأبي طالب الحسين بن علي الإنطاكي نصان، ولابن الرومي نص، ولمصنف الكتاب أبي الحسن الشمشاطي نص. والنواعير المقصودة في تلك النصوص هي نواعير الفرات ودجلة، وليست نواعير العاصي، وهي أصغر حجماً وأقل حمولة من نواعير العاصي. ونعيرها وإن كان متشابهاً في تلحينه.. إلا أنه مختلف في تلوينه، ارتفاعاً وانخفاضاً. ونواعير العاصي أبعد مدى وأعظم صدى، على أن تأثيرها في النفس واحد، وكلاهما حزين مثير للوجد والشجن.

يربط أعرابي في النص الأول بين حنين النواعير وحنين الإبل، غير أن حنين الإبل له أسبابه وبواعثه، فهي تحن إلى معاطنها ومواطنها، في حين كان حنين النواعير مبهماً لا وجه له، سوى أنه يشجي الحزين، فينثر المدامع على الخدين إظهاراً لوجده الدفين.

يقول الشمشاطي في كتابه: أنشدت لبعض الأعراب:

ولما نزلنا الساحلين تجاوبت	أبا عرنا لما ازدهت النواعر
وحنّت نواعير الفرات بأرضها	فلما استحنت جاوبتها الأباعر
أباعرنا .. بعض الحنين .. فإنه	إلى غير شيء ما تحنّ النواعر
سوى أنها تشجي الحزين الذي به	إلى رؤية الأحباب داءً مُخامر
إذا نحن أخفينا الدفين الذي بنا	من الوجد نمته الدموع البوادر ⁽¹⁾

ومثله فعل المجنون في حديثه عن النواعير، فهو يحن من وجده إلى ربي نجد، وهي تحن من غير وجد، ولكن الفرق بينهما أن دموعها تسقي الرياض، ودموعه تقرح الخدود. يقول المجنون:

باتت تحنّ وما بها وجد	وأحنّ من وجد إلى نجد
فدموعها تسقي الرياض بها	ودموع عيني أقرحت خدي ⁽²⁾

وإنني لأظن أن نص الأعرابي ونص المجنون، كلاهما رائد في بابيه، غير أن الأول عليه مسحة البداوة، والثاني عليه نفحة الحضارة، وما تلاهما من نصوص كان عاماً لهما، وتقصيلاً لما كان مجملاً.

ويبدو لي من قراءة نصوص عبيد الله بن مسعود (98) هـ أنها متشابهة، فألفاظها واحدة، ومعانيها متقاربة. فمفردات [الحنين والشجو والصبابة والدموع] وردت في النصوص الثلاثة،

(1) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 3.

(2) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 3.

يَقُولُ عبيد الله بن مسعود في النص الأول:

حَنَنْتُ إِلَيْكَ مِنْ شَجْوٍ وَحَنْتُ
خَلَوْنَ مِنَ الْهَوَى وَمُلَنْتُ مِنْهُ
سَاقِينَ الْحَلَوِّ مِنْ ثَمَرٍ وَتَسْقِي

نزلنا بالفرات ضُحىً وحنّت
وظلّتُ أحْنٌ من شوقٍ وليست
وبستُ من الصبابة مستهماً
سواءً ما سقّينَ وما جرّته

ولما استَحَنَّتْ بالفِرَاتِ عَشِيَةً
تَحَنُّنًا بِلا حَزَنٍ وَشَوْقًا أَصَابَهَا
سَوَاءٌ بِكَاءِ الْعَيْنِ مَنِيٍّ وَالَّذِي
عَلَى أَنْفِسي وَاللَّهِ قَدْ أَقْرَحَ الْبُكَاءُ

(1) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 4.

(2) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 4.

(3) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 5.

ويتناول ابن الرومي (283) هـ موضوع الناعورة تناولاً مختلفاً، فهو يلجأ إلى الوصف مستخدماً بعض معطيات العلم والفن، حيث نجد ألفاظاً ذات مظهر حضاري مثل [السمارية، البربط، القينة، اللحن، الزامر، الفلك الدائر] فيشبه الناعورة قرب السمارية (سفينة) بالبربط (العود) تارة، وبالقينة (المغنية) تارة أخرى، وكيزانها (جمع كوز) أنجم دائرة في فلك دائر. ويشق ابن الرومي من لفظة الناعورة صوتاً لها، فهي تنعز بالماء إذا أخرجت صوتاً. يقول:

كم صوّبت فيه سمارية موجفة كالنق — نق — النافر
ونعرت بالماء ناعورة حنينها كالبربط — البربط — الناعر
وتارة تحسبها قينة تردد اللحن على زامر
كأنما كيزانها أنجم دائرة في فلك دائر (1)

ولابن الرومي في الناعورة بيتان مفردان قائمان على التشبيه فحسب، وكأنما اصطنعهما اصطناعاً للتدليل على قدرته البيانية، وقد وردا في ديوانه. يقول:

وناعورة شبهتها حين ألست بطاووس بستان يدور وينجلي
من الشمس ثوباً فوق أثوابها الخضر وينفض عن أرياشه بكل القطر (2)

ويقترّب صالح الديلمي من ابن الرومي في تشبيه الناعورة بالفلك الدائر، وكيزانها بالنجوم، غير أن الديلمي أضاف ما أضاف توضيحاً لما ذهب إليه، فمنح الناعورة حياة، وجعلها تتحرك وهي بلا روح، وجعل كيزانها وهي تصب الماء كالنجوم المنقضة من السماء. يقول:

ومستدير بلا روح تدبره يديره قطب في الأرض مركز
كأنه فلك تنقض أنجمه إذا تصوب من كيزانها كوز (3)

أما أبو بكر الصنوبري أحمد بن محمد (334) هـ فقد جعل كواكب الفلك تنقض ساعة تطلع، كما جعل أصواتها ذات تلوين، فهي ترتفع وتنخفض، فيسمع منها حيناً حنين الذنب مردداً، ويسمع منها حيناً آخر زئير الليث مرجعاً. يقول الصنوبري:

فلك من الدولاب فيه كواكب من مائه ت تنقض ساعة تطلع
متلون الأصوات يخفض صوته بغنائه طوراً وطوراً يرفع

(1) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 9.

(2) انظر ديوان ابن الرومي 1150/3.

(3) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 7.

ينفي الصدى عن روضة نفحاتها
كملت محاسنها فنشر يرتضى
ويقول أيضاً:

كان دولا بها إذ حن مغترب
باك إذا عقى زهر الروض والدّه
مشمر في مسير ليس يبعده
ما زال يطلب رفد البحر مجتهداً
نأى حن إلى أوطانه طرباً
من الغمام غدا فيه أباً حديباً
عن المحل ولا يهدي له تعباً
للبر حتى ارتدى النوار والعشبا⁽¹⁾

ومثله فعل صاحب كتاب الأنوار أبو الحسن الشمشاطي حين يقول:

نزلنا بأكناف العراق فهيجت
نحن وتسقى الروض رياً ولم تذق
ولم تعرف الشوق الذي في جوانحي
ولو علمت ما قد لقيت ومُلكت
نواعيرُه أحزاننا حين حنت
هوأي الذي منه دموعي استهلّت
ولا حرقاً بين الضلوع استكنت
لساتاً لباحت بالهوى وتشكت⁽²⁾

والبيت الأخير يذكرنا بما قاله عنتره في معاناة جواده إبان الحرب.. والكر والفر:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكان لو علم الكلام مكلمي

تلكم هي أقدم النصوص التي تحدثت عن نواعير دجلة والفرات في القرون الأربعة الأولى، أما الذين تحدثوا عن نواعير العاصي فلم يرد لهم ذكر في كتب الأدب والتراجم إلا بعد القرن الخامس الهجري.

2. النواعير في كتاب بدائع البدائ:

شهد العهد الأيوبي منذ قيام دولة الناصر صلاح الدين نشاطاً عقلياً واضحاً، شمل كل مناحي الفكر، من علم ودين، وأدب وفن، وتاريخ ولغة، ظهر في عدد من المؤلفات الحسان التي تركها لنا جهاذة العلم وأساتذة الفن أمثال: أسامة بن منقذ والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل وابن سناء

(1) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 8 - 9.

(2) الأنوار ومحاسن الأشعار، ص 8.

الملك وابن الأثير وياقوت الحموي وغيرهم من جلة العلماء والأدباء والشعراء، وكان ما خلفوه لنا من إرث حميد خير شاهد على سمو مكانتهم العلمية في عصر اتسم بالصراعات الدائمة والحروب الطاحنة مع الصليبيين الغزاة طوال قرنين من الزمن.

ولعل أبا الحسن علي بن ظافر الأزدي كان واحداً من رجال هذا العهد الذين أغنوا تراثنا العلمي والأدبي، وأسهموا في قيام حضارة عربية ذات أصول راسخة، وظلال وارفة، وقطوف دانية.. نعم الشرق والغرب بخيراتها، فكانت للإنسانية هدى وخيراً، وخصباً ورياً، وحسناً وإحساناً. فمن هو ابن ظافر الأزدي، وما هي أخباره وآثاره، وماذا قدم لنا في كتابه "بدائع البدائع" من حديث عن النوايع..؟

ولد أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي في القاهرة سنة 567هـ، وهي السنة التي قطع فيها صلاح الدين بن أيوب خطبة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية، وخطب للخليفة العباسي المستضيئ، وأصبح سيد الموقف في مصر، ونائباً لنور الدين محمود بن زنكي فيها، وقد تسنى لابن ظافر الأزدي أن يقرأ الأدب والأصول والتاريخ وأن يبرع فيها. ثم ما لبث أن نهد للتدريس بالمدرسة الكاملية بعد أبيه، وترسل بعدها في الديوان العزيز بمصر. كما تمكن بحكم عمله أن يقيم صلات مودة مع عدد من أعلام عصره، نذكر منهم: القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وكاتبه، وابن سناء الملك شاعر عصره، والعماد الأصفهاني صاحب خريدة القصر، وأبا اليمن الكندي اللغوي النحوي المشهور، وكان بينه وبينهم مساجلات ومطارحات أورد طائفة منها في كتبه. وكانت داره ملتقى القصاد ومحط رجال العلم من شرق العالم الإسلامي وغربه.

وقد صحب ابن ظافر الأزدي الأشرف موسى بن الملك العادل إلى الديار الشرقية من بلاد الشام وزياراً، لتوطيد الأمن فيها، ولكن ابن ظافر الأزدي ما لبث أن نفر من الوزارة وأوزارها، وبرم بالغربة ووعثاء أسفارها، فانفصل عن خدمة الأشرف موسى، وعاد إلى القاهرة، حيث ديار الأهل ومواطن الأحبة، ومراتع السرور ومعاهد العلوم. وولي وكالة بيت المال مدة، ثم انصرف في آخر أيامه إلى التصنيف وقرض الشعر.. حتى وافاه الأجل المحتوم، وقد اختلف أصحاب التراجم في سنة وفاته، فمنهم من جعلها سنة 613هـ مثل ياقوت في معجم الأدباء، ومنهم من جعلها سنة 623هـ مثل ابن شاکر الكتبي في فوات الوفيات، والأول أصح لمعاصرته له.

ترك ابن ظافر الأزدي بعض المؤلفات، ذكر منها ياقوت وابن شاکر الكتبي عشرة، ولم يصل إلينا منها سوى ثلاثة.. هي: بدائع البدائع، وأخبار الشجعان، وأخبار الدول المنقطعة، وقد طبع كتاب البدائع والبدائع، أما الكتابان الآخران فما يزالان مخطوطين محفوظين في مكتبة المتحف البريطاني بلندن.

وما يهمننا من آثاره كتابه المطبوع، أعني بدائع البدائع، وقد طبع ثلاث مرات، الأولى طبعة بولاق سنة 1278هـ بعناية الشيخ محمد قطة العدوي، والثانية على هامش معاهد التنصيص سنة

1316هـ، والثالثة طبعة مصرية صدرت عام 1970 بتحقيق محمد أو الفضل إبراهيم، وهي أفضل الطبعات الثلاث وأتمها، وعليها اعتمادنا في هذا البحث.

ويعد كتاب بدائع البدائ من عيون الأدب، لأنه يشتمل على فوائد أدبية مختارة من كتب الأدب والنقد والتراجم، مما يوافق منهجه في التأليف، ومذهبه في التقسيم الذي التزم به. ولعل أجمل ما فيه من مطارحات وحكايات ما وقع في مجالسه، وما دار بينه وبين شعراء عصره في أثناء نزواتهم بين الرياض والغياض، وعلى أصوات النواير وخزير المياه عند ضفاف الأنهار، في غوطة دمشق وأرباض القاهرة، مما يذكر القرائح، ويقدر زناد البديهة والارتجال.

وقد مهد ابن ظافر الأزدي لكتابه بمقدمة أوضح فيها منهجه في التصنيف، وأبان عن تفرد فيه، مفتخراً بأن عمله لم يسبقه إليه أحد، ولم يرقمه في الطرس بنان. والكتاب مقسم إلى خمسة أبواب:

- 1 - في بدائع بدائه الأجوبة.
- 2 - في بدائع بدائه الإجازة.
- 3 - في بدائع بدائه التمليط.
- 4 - في بدائع بدائه الاجتماع على العمل في مقصود واحد.
- 5 - في بقية بدائع البدائه.

واستهل عمله بفصلين حول اشتقاق البديهة والارتجال، والفرق بينهما، ثم ختمه بمثل ما بدأ به. يقدم لنا ابن ظافر الأزدي في هذا الكتاب بعض الشواهد الشعرية حول النواير، وهي شواهد قبلت على سبيل البديهة والارتجال، للتدليل على مقدرة أصحابها في فن الصنعة الشعرية، ولاختبار قرائحهم في إصابة المعنى بسرعة، أي بديهة لا روية فيها، انسجاماً مع منهج المؤلف في كتابه. ولا تخلو هذه الشواهد من فوائد، وبراعة في الوصف، وبداعة في التشبيه وكلما أغرب الشاعر في وصفه كان أبلغ في بيانه، وأقرب إلى الدقة في إحسانه.

ومن فوائد هذه الشواهد أنها ترصد لنا بعض التسميات للنواير التي وردت على ألسن الشعراء، فمنهم من يطلق عليها اسم [النواير] مثل أبي محمد النامي في وصف ناعورتي بشيئة إحدى قرى بغداد. ومنهم من يطلق عليها اسم [الساقية] أو [الدولاب] مثل القاضي الأعز علي بن المؤيد الغساني في مساجلته مع ابن ظافر الأزدي صاحب الكتاب. وهذه التسميات ما تزال تتردد على ألسنة الشعراء حتى يومنا هذا، ولكن تسمية [النواير] هي أكثر شيوعاً واستعمالاً بسبب خصوصية هذه اللفظة، وعدم تعدد معناها. فالساقية مثلاً يمكن أن يكون لها أكثر من دلالة، وكذلك الدولاب، في حين لا تعني الناعورة أكثر من المعنى المقصود الدال على شيء بعينه.

ويلاحظ أن ما قدمه ابن ظافر الأزدي في كتابه يتوافق مع ما ذهب إليه من إيراد النصوص التي يغلب عليها الارتجال كما قلنا آنفاً، فما جاء مرتجلاً أو على البديهة، إجازة أو تمليطاً (ضرب من الإجازة أو المساجلة) كان أدعى لوقدة الذهن وحدة خاطر من القول الذي يأتي بعد روية

وإعمال فكر. والمرتل أو الباده كما يقول ابن ظافر الأزدي يقع منهما بالردىء اليسير، ولا يقع من المروي إلا الجيد الكثير [انظر ص7]. ولذلك كانت شواهد الشعرية الخاصة بالنواير مصطنعة، يبدو عليها أثر التكلف، وشتان بين الأثر المطبوع والأثر المصنوع على حين كانت مقدماتها النثرية ساطعة في بيانها بالرغم من زخارفها البديعية ومحسناتها اللفظية، لأن هذه الزخارف هي من سمات العصر. وهذا النقد لا يمس شواهد الكتاب الأخرى إلا في مواضع قليلة.

يقول ابن ظافر الأزدي في كتابه بدائع البدائ:

ومررت أنا وهو [يعني القاضي الأعز بن المؤيد] رحمه الله يوماً بدولاب يئن أنين ثكالى فقدت أطفالها، والنواعج أضلت أقالها، ويبكي بكاء صبا ألمه هواه، وصارمه من بهواه، وفرق البين بينه وبين محبوبته فراقاً لا يرجى انقطاعه، ولا يمكن استرداد ما سلبه منه ولا استرجاعه، فقلبه قد ملأته أوجاعه، وجفنه قد ضاق مجراه عن دمه ففتحت به أضلاعه، فقلت:

وساقية تن أنين ثكلى
شكت بأيننها حرر الأوار
فقال:

نحن ولا تزال تطوف عجلي
كرازمة تحن إلى حوار
فقلت:

غدت تحكي محباً ذا انتخاب
يطوف باكياً في رسم دار
فقال:

حكت فاكاً لجلب اللهو دارت
عليه من قوادسه دراري

وبصرنا بساقية تتلوى تلوي الأفعوان، وتخفق خفقات قلب الجبان، والزهر قد نظم بلبتها عقوداً فوق أثوابها الممسكة، والنسيم يكسوها ويلبسها غلائل مفركة، فقلت:

أساقية أم أرقم فر هاربا

فقال: أم الريح قد هزت من الماء قاضبا

فقلت:

حصى مثل در الثغر أجرى زلاله
رضباً وأبدى نبته النضر شارباً

فقال:

يوشحها زهرُ الرياضِ قلاتاً ويلبسها مرُ الرياحِ جلاباً⁽¹⁾

ويروي ابن ظافر الأزدي في موضع آخر من كتابه، عن الإمام الحافظ أبي طاهر السلفي، عن أبي غالب شجاع الذهلي، قال:

قال لنا أبو منصور بن أبي الضوء العلوي: كنت في قرية يقال لها بشيناء، وبها أبو محمد النامي، وهناك ناعورتان للزرع، فقال فيها وأنا حاضر:

أنا عورتِي شطِيّ بشيناءِ إنني نظيرُكما في الوجد والهيمان
أنينُكما يحكي أنيني وعبرتي أنينُكما في شدة الجريان
فلازلتما في خفض عيش يمدّه أمانٌ من التفريق والحدثان
وعملت أنا في الحال:

بشيني لها ناعورتان كلاهما تسحُ بدمعٍ دائم الهملان
مخافة دهرٍ أن يصيب بعينه لإحداهما يوماً فيفترقان⁽²⁾

وقد أورد هذا الخبر ياقوت في معجم البلدان مع اختلاف طفيف في الإسناد والرواية⁽³⁾.
وحكى ابن ظافر الأزدي في موضع ثالث من كتابه ما وقع له مع القاضي الأعز بن المؤيد في حديث طويل، حول دولا بئر في بستان مجاور للنيل، فقال القاضي الأعز:

حبذا سبّاعة المجرة والدولا ب يهدي إلى النفوس مسرةً
أدهم لا يزال يعدو ولكن ذو عيون من القواديس تُبدي
ليس يعدو مكانه قيد ذره كل عين من فائض الماء عبره
فلنك دائر يرينا نجوماً كل نجم منها يرينا المجره
وقال ابن ظافر:

ودولا ب ينن أنين تكلّى ولا فقدأ شكاه ولا مضرة
تري الأزهار في ضحك إذا ما بكى بدموع عين منه ثرة

(1) بدائع البداه، ص 204.

(2) بدائع البداه، ص 252.

(3) معجم البلدان 291/1.

حكى فلکاً تدور به نجومٌ تؤثر في سرائرنا المسرّة

يظل النجمُ يغربُ بعد نجمٍ ويطلع بعدما تجري المجرة⁽¹⁾

ويمكن أن نلاحظ من خلال استقراءنا لهذه الشواهد الأربعة أن النواير المقصودة ليست على العاصي. وإنما هي نواير صغيرة، أقيمت على الآبار وضفاف الأنهار، في بغداد والقاهرة، أو على دجلة والنيل، وهي تشبه النواير التي تحدث عنها أبو الحسن الشمشاطي في كتابه الأنوار في محاسن الأشعار قبل قرن من الزمن، وكانت أوصاف الشعراء لها متقاربة، وكلهم مجمّع على أن الناعورة فلك دائر، وأن قوايسها نجوم. غير أن ابن ظافر الأزدي وصاحبه القاضي الأعز قد أضافا المجرة إلى ذلك إلفك الدائر، وكذلك الشعراء سوف يزدون في حديثهم عن النواير معنى جديداً كلما تصرمت العصور وتعاقت الأجيال، ولكل عصر وجيل إبداعه وإماتاه.

وربما كان أحمد شوقي أمير الشعراء في القرن الماضي أول من ذكر هذه النواير في شعره، ويسمياها "السواقي"، وهو وحده من أشار إلى أن هذه السواقي تدور بقوة الحيوان الذي كف بصره بيد الإنسان حتى لا يرى الدنيا تدور حوله من كثرة دوراته، والنير في عنقه. يقول شوقي في قصيدته "الربيع ووادي النيل":

وجرت سواقي كالنواذب في القرى
الشاكيات وما عرفن صباية
من كل بادية الضلوع غليلة
تبكي إذا ونيت وتضحك إن هفت
هي في السلاسل والغلول.. وجارها
أعمى ينوء بنيره الفذاح⁽²⁾

وقد وجدت لشوقي قصيدة أخرى يحن بها إلى مصر وهو في الأسانة، مطلعها:
بالله يا نسيمات النيل في السحر
وفيها يصف "ساقية" بجوار الهرم بقوله:
ذكرت مصر ومن أهوى ومجلسنا
اليوم أشيب والآفاق مذهب
هل عندكن عن الأحباب من خبر؟
على الجزيرة بين الجسر والنهر
والشمس مصفرة تجري لمنحدر

(1) بدائع البداهة، ص 246.

(2) انظر الشوقيات 25/2. الملوّاح: السريعة العطش، صفة لب "بادية". والزراح: الإعياء والتعب. والغلول: جمع غل وهو القيد.

والنخل متشجّ بالغميم تحسبه
وما شجاتي إلا صوتُ ساقيةٍ
لم يترك الوجدُ منها غيرَ أضلعها
بخيلةٍ بما أقبىها فلو سالت

٣. نواعير حماة في شجر ابن نباتة المصري:

عاش ابن نباتة المصري بين عامي 686 – 768هـ إبان فترة حكم سلاطين المماليك البحريةية، وقد وفد إلى حماة أيام حكم الملك المؤيد إسماعيل بن علي المشهور بأبي الفداء 712 – 732هـ وحكم ابنه الملك الأفضل 732 – 742هـ، وقال فيهما أجمل قصائده التي عرفت باسم ((المؤيدات)) و((الأفضليات))، كما قدر له أن يتمتع بطبيعة حماة الجميلة ونهرها العاصي ونواخيرها الشاذية. ولعل أسعد أيام عمره المديد كانت في حماة، فقد حظي عند أبي الفداء ونجله الأفضل حظوة بالغة، ونال من الهبات والصلوات ما لم ينله شاعر في عصره، وعاش في بلاطهما عيشة راضية لم يعرف فيها ذائقة العصر أو غائلة الهوان.

ومن يقرأ ديوان ابن نباتة الضخم أو يطلع على شيء من رسائله النثرية فسوف يلحظ أثر حماة واضحا في شعره ونثره على حد سواء، وبخاصة في قصائده الطوال أو في مثانيه ومثاله والسبعة السيارة التي برع في صياغتها براعة فائقة، وكانت التورية هي السمة الغالبة على سائر أعماله الأدبية، وأظهر فيها من فنون الاقتدار والابتكار ما جعله سيدا في هذا اللون البديعي، وهو الذي مشى ملوك الأدب قاطبة بعد القاضي الفاضل تحت أعلامه طبقا لما يقوله ابن حجة الحموي في خزانة الأدب. من ذلك قوله يصف حماة في الزمن الوسيم من أيامه الخضيلة الجميلة ونضرة النعيم في واديهما الرحيب الخصيب:

أَحْسَنَ بَوَجهِ الزَّمَنِ الوَسِيمِ
وَحَبْذا وادي حَماءَ الرَحْبِ
أَرْضُ السَّناءِ وَالهِناءِ وَالْمَرْخِ
ذاتِ النِّواعِ سِرِّ سَقاءِ التُّرْبِ
تَعَلَّمَتْ نِواحِ الحِمَّامِ الهُتَفِ

(1) انظر الشوقيات 153/2.

فكأها من الحنين قلبُ
لاسيما والماء فيها صبُ
لله ذاك السفح والوادي الغرد
والماء معسول الرضاب مطرد
يصبو لها الراي فكيف السامع
ويحمد العاصي فكيف الطائع؟

ومن المؤكد أن ابن نباتة المصري في حديثه عن نواعير حماة قد استفاد من دلالات من سبقه من الشعراء الذين وصفوا النواعير أو تغنوا بفلكها الدائر ودمعها الماطر.. وحنينها وأنيبها، وأضاف إليها شيئاً جديداً بفضل إتقانه للصنعة البديعية التي مكنته من افتراع الألفاظ واختراع المعاني وتوليد ما هو ملائم للمظاهر الحسية والإثارية التي تقدّمها النواعير.

ولقد شبّه بعض الشعراء الذين سبقوا ابن نباتة الناعورة بالفلك الدائر كما رأينا من قبل، أمثال ابن الرومي وأبي بكر الصنوبري وغيرهما ممن كان مولعاً مستبهاً بمناظر النواعير الخلابة.. وسحرها المعجب المطرب. وجاء ابن نباتة ليزيد هذا المعنى قدراً من التزييق والتلوين وبخاصة عندما يجعل كواكب المجرة مذنبات حسناوات تجرّ وراءها ذوائبها كأنها ذيول ذات أضواء سنية تذكرنا بالخيوط المائية التي تتساب وتتناثر من صناديق الناعورة وهي تدور فتزيد ما حولها ألحاً لا يخبو.. وجمالاً ليس يزول.. وتدع خيال المتلقّي حراً طليقاً في المدى الواسع والأفق الرحيب. يقول ابن نباتة:

ناعورة بمنازل البحر اقتضت
فك في حالة التشبيه بثّ عجائب
فلك يدور على المجرة مطلقاً
أسنى الكواكب وهي ذات ذوائب⁽¹⁾

وربما ذهب ابن نباتة في التشبيه مذهباً أغرب وأعجب.. عندما يجعل الناعورة ذات قدرة على حماية ما حولها من الغياض والرياح بسيفها وترسها، وهما وسيلة الدفاع للبطل. يقول ابن نباتة:

يا حبذا في الحُسن ناعورة
كأنها من فلّك الشمس
تحمي حمى الروضات من مائها
وشكلها بالسيف والترس⁽²⁾

فالترس المدور يحكي الناعورة في شكلها الدائري، والسيف الضارب يحكي الماء المنسكب من قواديسها، وهذا التشبيه لم أقع على نظير له في غرابته، وقد عودنا ابن نباتة أن يقدم لنا دائماً في تشبيهاته البيانية كل ما هو غريب، ولكنه لا يخرج عما هو ممكن أو محسوس. ومن التشبيهات المألوفة تشخيص الناعورة، فهي ذات جسم وقلب، والجسم متعب منهوك لكثرة ما يتحرك ويحمل

(1) ديوان ابن نباتة، ص 61.

(2) ديوان ابن نباتة، ص 272.

من أقال. أما القلب فطيب.. لا يسأم ولا يبرم.. ولا ينفك عن البر والإحسان، وهذا القلب النابض بالحياة هو الذي يمنح الناس عيشاً كريماً.. كما يمنح الأرض الخضرة والنضرة. يقول ابن نباتة:

أعجب لها ناعورة.. قلبها للماء منشي العيش والعشب
تعبانة الجسم.. ولكنها كما ترى طيبة القلب⁽¹⁾

وقد يصور لنا ناعورة في روضة وفقاً لأسلوبه في التشخيص، يستخدم التورية برشاقة وناقة، فهو يورّي باسم "جعفر" واسم "ربيع"، ونحن نعرف أن الجعفر لغة هو النهر والربيع اصطلاحاً فصل من فصول السنة، والمحدثون يروون الحديث الشريف عن فلان وعن فلان، وابن نباتة في هذه اللعبة اللفظية يوظف التورية في أحسن حالاتها.. تاركاً قارئه أو سامعه يعجب من قدرته البديعية، وهو إمام الصنعة فناً وإبداعاً. يقول ابن نباتة:

أحسن بها ناعورة في روضة عن جعفر يروي الهناء ربيعها
هذا.. وليس يعد موج دموعها وتعد من فرط السقام ضلوعها⁽²⁾

ويأخذ ابن نباتة البيت الثاني ويزيده إيضاحاً وجلاء مستخدماً لغة الحوار، حيث نجد الناعورة حزينة سقيمة تبحث عن قلبها الضائع، في حين تبدو دموعها منسكبة على جسمها الناحل. يقول ابن نباتة:

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها وأضلعتها كادت تعد من السقم:
أدور على قلبي لأتي أضعته وأما دموعي فهي تجري على جسمي

ويروق لابن نباتة في موضع آخر أن يوزع محاسن الناعورة على الأسماع والأنظار وهي تدور.. وتبكي:

وناعورة قسّمت حسناتها على ناظر وعلى سماع
وقد ضاع نشر الربى فاغتدت تدور وتبكي على الضائع⁽³⁾

ولا يخفى ما يحمل الفعل "ضاع" من معنى الضياع والضوع في آن معاً، وهذا من مستلزمات التورية، أعني المعنى القريب وهو "الضياع" والمعنى البعيد وهو "الضوع"، والضياع معروف، والضوع هو انتشار رائحة الطيب، وهذا الاستخدام يتيح للقارئ تقليب معنى البيت على أكثر من وجه إن شاء، ويفتح أمامه باب الاحتمالات. ومثله في تعدد المعاني في البيت الواحد قول ابن نباتة:

(1) ديوان ابن نباتة، ص 61.

(2) ديوان ابن نباتة، ص 317.

(3) ديوان ابن نباتة، ص 317.

ذلكم هو ابن نباتة المصري في حديثه عن نوايع حماة، لقد جمع بين فن الصناعة وروعة البداعة، وكان في صنيعه محسناً.. وفي بديعه متقناً، وكفى حماة أن تميز جمالاً وجلالاً على لهاة الشاعر المصري الذي قال فيها وفي مليكها المؤيد أبي الفداء:

أما حماة فعيش ساكنها صفو.. وكل زمانها سحر
إسكندر الأيما مالكةا بدليل أن زمانه الخضر⁽¹⁾

وبعد:

ذاكم هو حديث النوايع في تراثنا العربي الزاهر، وهو غيض من فيض، وقليل من كثير، ولكن هذا الفيض.. وهذا الكثير غير مجموع في كتاب، ولكنه منشور.. متفرق شذر مذر في كتب الأدب والمختارات والرحلات ودواوين أهل الشعر من مطبوع ومخطوط، وضمّ هذه المتفرقات غير يسير، ويحتاج إلى قدر من التقصي والبحث للعثور على مقولات الشعراء في النوايع قديماً وحديثاً. ولعل شعراء العهدين الأيوبي والمملوكي كانوا أكثر الشعراء إثارة وتقناً في تكوين صورهم الفنية، وتلويحها بالمحسنات البديعية.. وما أقدرهم على ذلك. غير أن شعراء حماة لهم صولات وجولات في هذا الميدان، وما من شاعر حموي إلا وله في النوايع شعر مسموع، وصفاً أو ذكراً، محاورة أو مناجاة، والحديث عنها طويل وهو بالتأكيد ذو فتون وشجون.

أما كتاب الغرب وشعراؤه الذين خلبتهم نوايع حماة فقد كتبوا عنها فرائد من بيانهم، وقد علمت مؤخراً أن أحد الفرنسيين قد جمع ما قاله شعراء العربية في النوايع.. وربما ظهر كتابه قريباً. ولا يخفي أحد السويسريين وهو فيليب بندل دهشته من مشهد النوايع وصوتها الغريب فيقول: تقوم هذه النوايع بالإيقاع المنسق لحياة السوريين، فهي تتكلم بلغة الأبدية البسيطة لتروي قصة حياة عظيمة لهذه البلاد المدهشة، ثم يقول: يقف السائح فجأة وهو مأخوذ بدوار التاريخ، فالعالم هناك في عريه الأزلي، ففي الجنوب هذه دمشق. وليس بعيداً عن تركيا تقوم حلب العظيمة.. وفي الشرق هناك الصحراء المترامية التي تتحول فتصبح واحة في تدمير.. وعلى أطراف خط الطول جنوبي البلاد هناك بصرى..، لكن الدفق والنغم الداخلي الحقيقي من سورية الخالدة فهو من حماة التي تضرب على وتر ألحان هذا الدفق الفياض، فهي تترنم بمزامير خفايا ثقافتها، وهي تردد من غير أن تتوقف أبداً تاريخ الإنسان.. النوايع كما يقول "بندل" علامة الاستمرارية، والجو بجوارها يوحي بالسلام الدائم.

إن الدهر يدور، وإن النوايع لتدور، وكلاهما خالد إلى الأبد، وفي كل دورة يبرز نجم، ويغرب آخر، والنور الضئيل المنبعث من قنديل في محراب الأزل سيظل رمز عطاء لا ينفد، يصل الأول بالآخر، والحاضر بالغابر.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(1) ديوان ابن نباتة، ص 247.

أهم المصادر والمراجع:

- | | |
|---|---|
| <p>4 - ديوان ابن الرومي (ج3) - تحقيق حسين نصار - مطبعة دار الكتب (1976م).</p> <p>5 - ديوان ابن نباتة المصري: الطبعة الأولى - مصر 1905م.</p> <p>6 - الشوقيات (ج2): أحمد شوقي - الطبعة المصرية القديمة.</p> <p>7 - معجم الأدياء (ج13): ياقوت الحموي (626هـ) - دار المستشرق، بيروت، بلا تاريخ.</p> | <p>1 - أساس البلاغة: محمود الزمخشري (538هـ) - تحقيق عبد الرحيم محمود - طبعة مصورة (1982م).</p> <p>2 - الأنوار ومحاسن الأشعار: علي بن محمد العدوي الشمشاطي - طبعة الكويت 1977م.</p> <p>3 - بدائع البداهة: علي بن ظافر الأزدي (613هـ) - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - طبعة مصورة - بيروت (1992).</p> |
|---|---|

